اللغة والعصر

(تابع لما فى الجزء السابق)

ومهما يكن من امر هذا المجتمع فقد مضى على وجههِ ودرجت بعدهُ الايام ودبّت الليالي والحاجة في مكانها والرغبات متطالّة والخواطر هائمة والاقلام جافّة واللغة على ما كان من عهدها لم تستغنِ بتلك الكلمات العشرين ولا وُجِد بعد ذلك من أجرَى لها ذكرًا ولا أخطَر للنظر في امرها فكرًا فكأن ذلك المجتمع انما عُقِد لتثبيط العزائم عن نهضتها وقطع آخر عرقٍ من الامل وكأن اربابهُ نفرٌ من الاطبّاء اجتمعوا للائتمار على عليل فكان قُصارَى ما في طبهم أن قضوا باليأس منهُ ثم خرجوا وهم يقولون عظّم الله اجركم في الفقيد

فبقي الآن إمّا ان نُسجِل بموت اللغة وموت الآمال معها واليأس إحدَى القنيتين واما ان نستأنف العزم ونجدّد السعي في احياء ما اندثر منها وتدارُك ما طرأ عليها من الثُلَم وهو ما لا تزال الآمال فيهِ منوطةً بهمم رجال هذا القُطر ان نَشِطوا لهُ وتفرغوا للاشتغال بهِ وتنبهوا لمكان اللغة من الأُمّة وأنها هي عنوانها والفصل الذي تتميز بهِ من سائر الأُمم بل اللغة هي الأُمّة بعينها فكما تشخّص تاريخها وعلومها وعاداتها وعباداتها فانها تشخص الأُمة بنفسها وبها يشار اليها ويُدَلّ عليها وذلك فضلاً عن أنها هي مجمع ألفتها والوُصلة الحسّية بين آحادها وجماعاتها فهي علّة الضمّ الحقيقية بينها والجامعة الطبيعية التي بها يستتبّ معنى المدنيّة واذا تفطنتَ للمراد من قولهم الانسان مدنيٌّ بالطبع شفّك عن حقيقة هذا القول وتبيّنتَ موضع اللغة من الحالة الاجتماعية . واعتبر ذلك في الأُمم الاوربية لهذا العهد فانها على اتحاد اكثرها في النِحلة الدينية وما

يصل بينها من لحمة النسب انما تتميز الجنسية عندها باللغة وهي الفصل الفارق بين أُمّةٍ وأُمّة وعليها مدار الوحدة الوطنية وصيانة المصلحة الأُمّية وما لم تتحد الأُمّتان منها في اللغة لا يُؤمَن انتقاض احداهما على الاخرى ولو اتحدت بينهما المصلحة الوطنية والجامعة السياسية . بل انظر الى الناطقين بلساننا العربيّ فانهم على تباينهم في الأنساب والأديان والعوائد الى ما لا تجد لهُ مثيلاً في العالم كلهِ وعلى ما بينهم من اختلاف الحال السياسية وتفاوت المصالح الذاتية وتضافر دواعي الشقاق والافتراق لم تثبت لهم جامعةٌ ينضمون بها ويتألفون حولها سوى اللغة حتى لقد تجد من الدخلاء فيها من هو اشدّ اعتصاماً بها ومحافظةً عليها ممن ورثها عن أوّليتهِ وانتهت اليهِ عن غير كلالة

بل عندنا اليوم ما هو ابلغ من ذلك وهو ما نراهُ من كثير من فتياننا الذين يتلقّون العلم في المدارس الاجنبية فانك تجد كل فريقٍ منهم قد أُشرِب الميل الى الأُمة التي يدرس في لسانها فمن تعلم في المدارس الانكليزية مثلاً خرج ميلهُ انكليزيًا وكذا من درس في المدارس الفرنسوية او الطليانية او غيرها حتى تراهُ يباهي برجال تلك الأُمة ويتبجح باخبار ملوكها وكبرآئها وفضائل اهل العلم والشعر منها ويقتبس كثيرًا من اخلاقها وعاداتها ويتشبه بمشاهير اهلها ومن يقع في نفسهِ منها موقعاً وربما أُشرِب عقائد بعض علمآئها وفلاسفتها الى غير ذلك مما لا تكاد تفرقهُ فيهِ عن احد افرادها بل ربما بلغ من بعضهم ان ينزع الى الالحاق بجنسيتها والانتظام في عداد آحادها فيطلب مشاركتها في الوحدة الحسيّة بعد الوحدة المعنوية وهو نهاية ما يمكن تصوُّرهُ من الشواهد في هذا الباب

وهذا الامر مما تنبهت لهُ الامم الفاتحة من قديم واتخذتهُ قاعدةً تجري عليها في تقرير فتوحها وتوثيق سلطانها واتقآء سَورة المغلوبين اذا حزبهم من

ناحيتها ظلمٌ او سامتهم شيئاً من ضروب الخسف وحسبُنا شاهدًا عليهِ ما هو جارٍ ليومنا هذا في الجزائر وتونس من البلاد العربية حيث أُهمل تعليم اللسان العربيّ في المكاتب الا بمقدار ما يتوصّل بهِ الى تلاوة القرآن وجُعِل كل ما سوى ذلك باللغة الفرنسوية حتى كادت العربية تُتناسى في تلك الاقطار ولم يبقَ منها الا ما يتداولهُ العامة من اللفظ المبذوء والكلام السوقيّ وغابت عنهم محاسنها وعلومها وتواريخها وآدابها وعلى الجملة فانها صارت عندهم امرًا تافهًا لا معنى لهُ ولا رغبة فيهِ وهي سائرةٌ في طريق الاضمحلال بما تغلّب عليها من العجمة وشيوعها على ألسنة اهل البلاد وذلك فضلاً عما يبهرهم كل يومٍ من اقتدار الفاتحين وما يرون من آثار سطوتهم ونفوذ شوكتهم وضخامة ملكهم وما لهم من ضروب التفنن في العلم والاختراع مما تتعاظمهُ نفوسهم يوماً بعد يوم وعن قليلٍ ستصبح هذه اللغة عندهم كأن لم تَغنَ بالأمس ولم تكن شيئاً مذكورًا . ولذلك كان من اوجب الواجب في المحافظة على بقاء الأُمّة وصيانة الجنسية بينها احياء لغتها بين عامة اهلها وتكثير سواد اهل العلم منها والتجافي بها ما امكن عن لغات الاعاجم الّا الخاصّة الذين عليهم المعوّل في نقل علومهم الينا ونشرها بلغتنا بحيث نلحق بهم في الحضارة دون الجنسية . وهذا انما يتمّ اليوم بأن تنهض الأُمّة بنفسها لهذا الامر الخطير ويتجرّد لهُ عقلاء سراتها واهل العلم فيها لا يتكلون في ذلك الّا على انفسهم ولا يصدرون الّا عن عزائمهم والّا فان استنامتهم الى من سلّم اليهم قياد العلم وتهذيب الأُمة في القطر لا يُعَدّ الا ضرباً من التغرير بمصلحتهم والإعانة على اضمحلالهم وما ظنك بقومٍ بعضهم مغلوبٌ لسيطرة الاجنبيّ يعمل بما يُوعَز اليهِ لا بما يراهُ وبعضهم منقادٌ لسلطان التعصّب وهو هادمٌ لأركان العلم من قواعدها ذاهبٌ برسوم الجنسية من اصلها مُغرِقٌ لهذه الشِرذِمة الباقية

في لجٍّ لا يُعرَف لهُ دَرَكٌ ولا ساحل و بعضهم مقيمٌ في ظلال الجهل والأُمّية لا يميز الألِف من الرآء ولا التآء من اليآء . . . ثم ليعلموا أن العاملين اللذين يتنازعان الأُمة لهذا الوقت لكليهما وِجهةٌ واحدة يلتقيان عندها وان اختلف طريقهما وغرضٌ واحد يرميان اليهِ وان تباين موقفهما ألا وهو استئصال أَرُومة الجنسية والذهاب بآثار الوطنية فان استيقظوا لما أُرصِد لهم و بادروا الامر قبل موقعهِ والاّ فهذه لغتهم عن قليلٍ ستسقط من عالم الأقلام وتُستبدَل برطانة اعجمية بل تصبح ألسنتهم اشبه بألسنة اصحاب الصَرْح وأشراطُ الامر باديةٌ من الآن فليعتبروها واذا مضى على هذا زمنٌ يسير بقيت اللغة محصورةً في المساجد والمحاكم الشرعية ولم تجدها في المحادثات اليومية الاّ على ألسنة اقوامٍ من الفلاّحين واهل البادية لا يُطلَق اسم العربيّ الاّ على شراذم من اولئك و بئس الخَلَف

وقد اطلنا في هذا المعنى حتى كدنا نخرج عن المقصود وما نحن في شيء مما انسقنا اليهِ في هذا الموضع ولاهو من اغراض هذه المجلّة وانما اوردنا ما اوردناهُ متابعةً لمقتضى البحث وايضاحاً لما توخّيناهُ من بيان خطر اللغة في الأُمة ومنزلتها من الجامعة الجنسيّة والحديث ذو شجون ولذلك نترك بقية هذا المطلب لرصفآئنا من اصحاب الجرائد السياسية يوفونهُ حقَّهُ من القول و يستنهضون الأُمة للعمل بهِ ان شآءت اذ هو من خصائصها وهمها ونعود الى ما كنا فيهِ من الكلام على اللغة واستئناف الوضع فيها سدًّا لما طرأ عليها من مواضع الخلل وهو ولا ريب من أخشن المباحث مركبًا وأبعدها مطلبًا وأغمضها آثارًا وأخفاها منارًا ومما لا يفي بهِ ما عندنا من المادّة النافعة والعلم النَزْر ولكنّا سنجعل البحث فيهِ ذريعة الى ما نتوقعهُ من اقلام أئمة العلم في هذا العصر والله سبحانهُ وليّ الاعانة والتوفيق

ستأتي البقية